كلية التربية للعلوم الانسانية
College of Education for Human Sciences

ISSN: 1817-6798 (Print)

Journal of Tikrit University for Humanities

available online at: http://www.jtuh.tu.edu.iq

JTUH

Verses of Recitation Prostration (Ayat Sujood al-Tilaawah) A Study in the light of (Al-Munasabah) Science

Dr. L. Maqbool Ali Basheer Alni'ma

Mosul University / College of Arts

mmwff@yahoo.com

Keywords:
Verses of Recitation Prostration
Ayat Sujood al-Tilaawah
Quran studies
Quranic text analysis

ARTICLE INFO

Article history:
Received 29 Jan. 2020
Accepted 17 Feb 2020
Available online 22 Apr 2020
Email: adxxx@tu.edu.iq

ABSTRACT

The present study shows the intertextual relationship among the verses of recitation prostration, and how were these verses arranged and ordered in the chapters (surahs) of Quran. A suitable importance for the order of *descend* is also given. Verses of recitation prostration are specific in the Holy Quran. They have a special politeness and a distinguishing feature. It is recommended and necessary (Waajib) to prostrate to Allah (make sujood) one time after reading or reciting one of these verses. It is a religious obligation. Muslims should obey Allah's command and follow the sunnah of the His Prophet Muhammad (peace be upon him). This study deals with the verses of prostration mentioned in Surah Al A'Raf, Surah Al Ra'd, Surah Al Nahl, and Surah Isra', because they are ones of the longest Surahs (chapters) in the Quran that contain the verses of prostration. In the long surahs (chapters), talking about Al-munasabah will be more accurate and deeper with regard to analysis. The results will be also more brilliant. These selected chapters enriched the study because of the variety included. Al-munasabah* is one of Quran sciences that deal with i'jaz or inimitability. This science is based on contemplation and consideration (meditation) in the verses (Ayahs) and chapters (Surahs). It examines Asbab al-nuzul (descend reasons of verses) and the secrets of composition and arrangement in the Holy Quran. The study consists of an introduction and four sectionms associated with verses of prostration and arranged as mentioned in the Quran. In the conclusion, the results of study are given. The analysis procedure followed in the present study is that one explained by many leading scholars and explorers of this science such as Al-Razi, Al-Biqa'I, and Al-Suyuti. The results are demonstrated in detail in the study text (content) and demonstrated briefly in the conclusion.

© 2020 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.27.2020.2

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

آيات سجدات التلاوة دراسة في ضوء علم المناسبة

م. د. مقبول علي بشير النعمة/ جامعة الموصل/ كلية الآداب

الخلاصة:

يهدف البحث إلى الوقوف على اللطائف المبينة لمناسبة آيات سجدات التلاوة، وبيان أسرار انتظامها في مواضعها المحددة في القرآن الكريم وفي السورة بترتيب المصحف الشريف، مع إعطاء أهمية مناسبة لترتيب النزول.

وآيات سجدات التلاوة هي آيات مخصوصة في القرآن الكريم، تتضمن عزائم السجود لله تعالى، جاءت بصيغة الأمر المباشر أو الخبر الذي يعني الأمر، ولها أدب خاص ومزية خاصة؛ إذ يشرع السجود عند تلاوتها واستماعها؛ امتثالا لأمر الله عز وجل، وتطبيقا لسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقد تخيّر البحث صفوة من هذه الآيات، وهي آيات سجدات سور: الأعراف والرعد والنحل والإسراء؛ وذلك لأسباب منها أنها من أطول السور التي تضمنت آيات السجدة، وفي السور الطويلة يكون الوقوف على المناسبة أدق نظرا وأعمق تحليلا، وتكون نتائجه أشد إبهارا وأكثر لطافة. كما أن هذه السور المختارة فيها من التنوع ما يثري البحث.

وعلم المناسبة من علوم القرآن التي تهتم بجانب من جوانب الإعجاز فيه، وهذا العلم يقوم على التدبر والتأمل في الآيات والسور، والاجتهاد في معرفة مناسبة الآيات وأسرار النظم والترتيب في القرآن الكريم.

وجاء البحث على مقدمة وأربعة عناوين جانبية وافقت آيات السجدات، مسلسلة حسب ترتيبها في المصحف، ثم اختتم بخاتمة بينت أبرز النتائج.

وقد حاول البحث الالتزام بمنهج للتحليل بيّن أصوله عدد من رواد هذا العلم، من بينهم الرازي والبقاعي والسيوطي رحمهم الله.

وقد خرج البحث بنتائج فصلها في متن البحث وأوجزها في الخاتمة.

.

مقدمة:

الحمد لله الذي هدانا للسجود لعظمته، الحمد لله الذي يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس، ويسجد له من في السموات والأرض طوعا وكرها، ويسجد له ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون، والصلاة والسلام على من علّمه الله تعالى في أول الوحي أن يتقرب إليه بالسجود، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ العلق.

وبعد:

فنحن أمة الإسلام مأمورون بتدبر القرآن، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص، لأن التدبر من أعظم مفاتيح القلب، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد، والقلب السليم جواز المؤمن للنجاة من هول يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ الشعراء.

وعلم المناسبة من العلوم القائمة على التدبر وإدامة النظر في كلام الله تعالى، فهو ((علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول))[1]، فعلم المناسبة ينظر في ترتيب السور والآيات

وحسن نظمها، وأكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط، كما يقول الرازي رحمة الله عليه[٢].
وهذا جانب دقيق من جوانب إعجازه، وبيان ذلك ((أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد دقيق السبك متين الأسلوب قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سورة وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقا لأوله وبدا أوله مواتيا لآخره))[٣].

ولعلم المناسبة ضوابط نبّه إليها أهل هذا العلم، ليكون الاجتهاد في معرفة المناسبة محصنا من الهوى والغفلة والجهل. من أهمها عدم تكلف المناسبة، فقال بعضهم: ((علم حسن لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أَن يقع فِي أَمرٍ متّحد مرتبط أَولهُ بآخره فإن وقع على أَسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ومن ربط ذلك فهو متكلِّف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حَسَنُ الحديث فضلا عن أَحسَنِهِ فإن القرآن نزل في نيّف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرِّعت لأَسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض))[٤]، من بين هذه الضوابط هو الوقوف على مقصد السورة أو الغرض الجامع لها، ((فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها، فترتب المقدمات الدالة عليه، على أتقن وجه، وأبدع نهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليك، استدل عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلم جرا، فإذا وصل الأمر إلى غايته، ختم بما منه كان ابتدأ، ثم انعطف الكلام إليه وعاد النظر عليه، على نهج آخر بديع، ومرقى غير الأول منيع))[٥].

مما لا شك فيه أن أي دراسة تتوجه بإخلاص نحو القرآن الكريم فإنه سينال صاحبها من شرف القرآن ما يناله، فكيف إذا كانت الدراسة ترنو إلى البحث في آيات تتعلق بواحدة من أعظم القربات إلى الله عز وجل!؟

من هنا شرع البحث في التعرف على مناسبة آيات، توزعت على سور محددة في القرآن الكريم، وجاءت في مواضع متباينة في السورة الواحدة، ليقف على شيء من أسرارها.

هذه الآيات هي آيات سجدات التلاوة في القرآن الكريم، وهي آيات مخصوصة في القرآن الكريم، تتضمن عزائم السجود لله تعالى، جاءت بصيغة الأمر المباشر أو الخبر الذي يعني الأمر، ولها أدب خاص ومزية خاصة؛ إذ يشرع السجود عند تلاوتها واستماعها؛ امتثالا لأمر الله عز وجل، وتطبيقا لسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فقد ذكر ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان ((يقرأ السجدة ونحن عنده، فيسجد ونسجد معه، فنزدحم حتى لا يجد أحدنا لجبهته موضعا يسجد عليه))[٦].

ولكي يحقق البحث ما يرومه (وهو التعرف على المناسبات التي يمكن الوقوف عليها لبيان أسرار انتظام هذه الآيات في مواضعها المحددة)؛ فقد حاول الالتزام ببعض الأمور التي رآها ضرورية لصالح البحث:

منها الابتعاد عن الخوض في القضايا الفقهية والخلافات التي تتعلق بسجدات التلاوة، لا سيما المتعلق منها بتحديد الآيات في القرآن الكريم وتحديد أعدادها، ومن هنا اهتمت الدراسة بالسجدات التي اجتمعت عليها المذاهب الإسلامية [٧].

كما أن البحث أيقن بأن دراسة المناسبة لآيات السجدات جميعها في مقام كهذا لا يمكن أن يوفيها حقها؛ إذ تحتاج دراسة من هذا النوع إلى مجال واسع، فدراسة مناسبة آية واحدة تحتاج إلى تحليل السورة جميعها والوقوف على مقاصدها ومواضيعها وأغراضها.

من هنا فقد عمد البحث إلى تخيّر صفوة من آيات سجدات التلاوة، ورأى أن يختار سجدات سور: الأعراف والرعد والنحل والإسراء، لكونها من أطول السور التي تضمنت آيات السجدة، وفي السور الطويلة يكون الوقوف على المناسبة على أدق نظرا وأعمق تحليلا، وتكون نتائجه أشد إبهارا وأكثر لطافة. كما أن هذه السور المختارة فيها من التنوع ما يثري البحث، فمنها المكي والمدني، ومنها الذي جاءت السجدة فيها في أوائل السورة ومنها في ضمنها ومنها في آخرها، كما أن نص الآيات متباين من حيث مضمونها وصياغتها. هذا فضلا عن أن هذه السور المختارة جاءت على ترتيب المصحف؛ ومن هنا يمكن لبحوث مستقبلية أخرى أن تكمل ما بدأه هذا البحث.

وفي سبيل تعيين المناسبة وبيانها رأى البحث أن يلتزم منهجا لا إفراط فيه ولا تفريط، إيمانا منه بأن علم المناسبة علم دقيق، بابه الاجتهاد[٨].

وقد رأى البحث في عبارة البقاعي (واستحسنها السيوطي رحمهما الله)[٩] ما يمكن أن يشكل منهجا مناسبا يمكن الالتزام به والخروج من جرّائه بنتائج طيبة، قال البقاعي: ((الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا عقلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية، وفي كل سورة سورة))[١٠].

وهذا ما حاوله البحث، إذ حمل على عاتقه بيان المعنى الكلي الذي تقوم عليه السورة، ليكون مفتاحا للوقوف على مناسبة آيات السجدة فيها.

كما أنه بين بعض الأمور التي تخص السور من حيث مكان نزولها ووقته، إيمانا منه بأنها مهمة في دراسة المناسبات؛ فإعجاز القرآن كما أنه قائم بيّن في ترتيب المصحف، فإن له في ترتيب النزول وفي مناسبته للأحداث وجوها للإعجاز كذلك.

هذا ونسأل الله تعالى التوفيق لما يحبه ويرضاه، وأن يتجاوز عنا ما أخطأنا فيه وقصرنا.

آية السجدة في سورة الأعراف

وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ الأعراف.

هذا أول مواضع سجود التلاوة في القرآن الكريم من حيث ترتيب السور في المصحف، وقد جاء في سورة الأعراف، في آخر آية منها: الآية السادسة بعد المئتين.

والسجدة في هذه الآية لم تكن الأولى من حيث ترتيب النزول، فهي السجدة الرابعة، جاءت بعد سجدة سورة العلق ثم سجدة سورة النجم ثم سجدة سورة ص.

وسورة الأعراف مكية إجمالا، ترتيبها في المصحف السابعة كما أنها المكية الثانية. وهي من السّبع الطّوال التي جعلت في أوّل القرآن لطولها، وهي التاسعة والثلاثون في ترتيب النزول[١١].

نزلت بعد سورة (ص) وقبل سورة (الجنّ)، وكان نزول سورة (الجنّ) مع رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف، وكان قد سافر إليها سنة عشر من بعثته ليعرض الإسلام على أهلها، فيكون نزول سورة الأعراف فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء.

أي إنها نزلت كما هو معروف في وقت بلغ الصراع بين المسلمين وكفار قريش مبلغه، لا سيما حينما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالجهر بدعوته وبتبليغ قومه، الذين كذبوه وآذوه، فهي مرحلة جديدة، تطلبت أدوات جديدة للدعوة إلى الحق، التي بدأت طلائع أشعتها تبزغ للتو، لتواجه ظلاما عشعش في القلوب وقيد النفوس وأعمى الأبصار، يعتاش في لُجّته أناس ضالون مضلون، منهم قوم النبي وأقرباؤه، في خضم هذا الحال العصيب نزلت هذه السورة، ويمكن في هذا الإطار أن نفهم لم هي أول سورة عرضت قصص الأنبياء بالتفصيل، إذ استغرق هذا القصص أكثر من نصفها، وقد ساقت لنا السورة الكريمة ما دار بين الأنبياء وبين أقوامهم، وما آل إليه أمر أولئك الأقوام الذين لم يستجيبوا لنصائح المرسلين إليهم. وهذا المحور يناسب جو الصحابة، لا سيما في هذه المرحلة من الدعوة في مكة، كما أنه ينعكس على الناس جميعاً في كل زمان ومكان. ففي كل عصر سيعيش الناس مواقف صراع بين الحق والباطل على مستوى الدول والأمم، وعلى مستوى الشعوب والقبائل، بل وعلى مستوى الحياة الشخصية بين الإنسان ونفسه.

و(الأعراف) هو الاسم الذي عُرفت به هذه السّورة، من عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)، فإن فيها لفظ الأعراف الذي لم يذكر إلا في هذه السورة[١٢]، التي تحكي شأن أهل الأعراف في الآخرة.

والمتأمل في هذه السورة يدرك أن موضوعها الرئيس يختص بالدعوة (الأمر بالدعوة وموضوعها وبيان منهاجها)، إذ افتتحت بخطاب مباشر إلى النبي صلى الله عليه وسلم تحثه على النهوض بالدعوة إلى الله عز وجل: ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ الأعراف.

ثم اتجهت السورة إلى بيان موضوع الدعوة والتحديات التي تواجهها، متخذة نسقا قائما في الغالب على التنويع في أسلوب الخطاب بين المباشر الذي أثْرَتْه أنماط الترغيب والترهيب، والإنذار والوعد والوعيد، وبين غير المباشر الذي أثْرَتْه القصص بموضوعاتها وأحداثها وأماكنها وشخوصها ونهاياتها، ومعطياتها من الدروس والعبر.

هذه القصص ابتدأت ببداية خلق البشر: قصة آدم عليه السلام مع إبليس الذي أبى السجود، ثم انتقلت إلى مشهد من مشاهد القيامة، مشهد الأعراف ومصير البشر جميعا إلى واحد من فريقين: فريق آمن بالله وتبع دعوة رسله عليهم السلام فدخل الجنة، وفريق أبى فدخل النار، فكأن هذه السورة أُجْلَسَت المتأمل فيها على الأعراف[١٣] ليتعرف على مصير الفريقين والوقوف على حالهما وعلى وما يدور بينهما، حتى في أدق تفاصيل الخطاب، وليحكي المشهد النهاية الحقة التي تنتهي إليها كل النهايات، والغاية التي تصير إليها كل الصراعات، وللمتأمل في هذه السورة أن يعرض هذه النهاية الحقة على ما تقصه هذه السورة بعد هذا المشهد من قصص لأنبياء الله عز وجل مع أقوامهم: نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم لوط، ثم شعيب، ثم موسى (عليهم السلام)، كل مع قومه، وما آل إليه حال النبي صلى الله عيه وسلم وحال قومه، من المؤمنين به ومن المكذبين.

ثم يعود الخطاب المباشر للنبي صلى الله عليه وسلم في آخر السورة؛ لتوجز له المنهج الذي ينبغي عليه أن يتخذه في دعوته: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ الأعراف.

إن تكليف النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله عز وجل منّة عظيمة من الله عز وجل على النبي عليه الصلاة والسلام وعلى أمته إلى قيام الساعة، توجب عليه وعلى أمته السجود لله عز وجل، وإن تبيان الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام المنهج الذي ينبغي عليه أن يلتزمه لضمان تبليغ دعوته منّة عظيمة كذلك من الله عز وجل على النبي عليه الصلاة والسلام وعلى أمته إلى قيام الساعة، توجب عليه وعلى أمته السجود لله عز وجل.

لذا كان من المناسب لموضوع السورة العام أن تختم بآية فيها سجدة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ الأعراف

كما أن ختام السورة بهذه السجدة ناسب الكثير من التفاصيل التي اشتملت عليها هذه السورة، فقد ناسبت مطلع السورة ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ الأعراف، فهذا الكتاب الذي أُنزل إليك فيه أمر بالسجود؛ فلا يكن في صدرك حرج في أن تسجد للذي خلقك وأرسلك، وتظهر ذلك وتتعبد به، وقد بين لك من أخبار من سبق جائزة من سجد وعاقبة من أبى.

ثم إن هذه السجدة فيها تعريض بإبليس الذي أبى السجود لآدم وقد أمره الله تعالى به، وذلك في قصة استكباره التي عرضتها السورة في أولها، ((ولما في الآية من التعريض شرع السجود عند هذه الآية

إرغاما لمن أبى ممن عُرّض به))[١٤]: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ الأعراف.

وكذلك ناسب ما ورد في السورة من إشارة عامة إلى المكذبين والمستكبرين، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الأعراف، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الأعراف، ومن إشارات خاصة وردت في قصص الأنبياء، مثل عبارة تكررت . لأهميتها . في قصتي ثمود ومدين، ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ الأعراف، وفي قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ الأعراف، وفي مشهد السحرة مع فرعون، الذين ما إن رأوا آية حقة حتى حزموا أمر إيمانهم، بل وجهروا به جميعا، وبقوة، أمام الملأ، في فعل يدل على منتهى الخضوع، فقد سجدوا لله، وما صرفهم عن ذلك جبروت فرعون ولا وعيده الشديد: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ الأعراف.

وفي مقابل موقف تحول السحرة إلى الإيمان وإظهار ذلك بالسجود، ذكرت السورة موقف الذي تحول من الإيمان إلى الكفر، متبعا سبيل الشيطان في الاستكبار: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ الأعراف.

كما أن السجدة ناسبت الآية التي سبقتها، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ الأعراف، فـ ((لمَّا رغَّب رسولهُ في الذِّكر ذكر عُقيبه ما يُقوِّي دواعيه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: إنَّ الملائكة مع نهاية شرفهم وغاية طهارتهم وبراءتهم من بواعثِ الشَّهوَةِ والغضب والحقدِ والحسدِ مُواظبُونَ على العبوديَّة والسُّجودِ والخُضُوعِ، فالإنسانُ المُبتَلَى بظلمات عالم الجسمانيات ومستعداً للذات البشرية أوْلَى بالمُواظبةِ على الطَّاعةِ)) [١٥].

إن استحضار ما ناسبته آية السجدة هذه لبقية السورة لا شك أنه يزيد حضور القلب أمام رب العزة، فإذا أرغم الإنسان جوارحه وسجد لله تعالى، مستحضرا ما أمر به نبيه صلى الله عليه وسلم، من الامتثال لأمره من غير أن يكون في صدره حرج، وإذا سجد مستذكرا استكبار إبليس وما حل عليه من لعنه، ومستذكرا استكبار أقوام مع أنبيائهم، وإذا سجد مستحضرا سجود السحرة لله عز وجل على ملأ من فرعون وقومه، وإذا سجد مستحضرا حال أهل الجنة وأهل النار؛ وإذا سجد وهو يتلوا ويتأمل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ الأعراف، فلا شك في أنه سيطمع أن يكون من الذين[١٦] لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون، ولا شك أن في هذا طمأنينة للقلب وزيادة في الإيمان.

آية السجدة في سورة الرعد

وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ الرعد

هذا هو الموضع الثاني لسجود التلاوة في القرآن الكريم من حيث ترتيب السور في المصحف، وقد جاء في سورة الرعد، في الآية الخامسة عشرة، من بين ثلاثة وأربعين آية، هي عدد آيات سورة الرعد، أي في نحو آخر ثلث السورة الأول.

والسجدة في هذه الآية من أواخر السجدات من حيث ترتيب النزول، فهي قبل السجدتين الأخيرتين في سورة الحج، وقد جاءت بعد سجدة سورة الانشقاق.

وسورة الرعد مدنية، وهي السورة الثالثة عشرة في ترتيب سور المصحف، وهي من المئين، وهي السادسة والتسعون في ترتيب النزول.

نزلت بعد سورة (محمد) (التي تسمى كذلك سورة القتال) وقبل سورة (الرحمن)، ويرجح أن تاريخ نزولها ما بين صلح الحديبية إلى غزوة تبوك[١٧]

وقد سميت بهذا الاسم لورود لفظ الرعد في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ...﴿١٣﴾﴾ الرعد

ويمكن لقارئ سورة الرعد أن يلحظ نسقها الفذ الذي طبعها بطابع واحد متميز على طول السورة، جعل جوها واحدا، على الرغم من ثرائه بالصور والظلال والحركة ووقع الفاصلة المنسجمة، فـ((فصول السورة منسجمة تكاد تكون سلسلة واحدة مما يسوغ القول إنها نزلت متتابعة إن لم تكن نزلت دفعة واحدة)) [١٨]

ومن هنا، ولكي نقف على مناسبة السجدة في هذه السورة، فعلينا أن نقف على نسق السورة، والحقيقة أن هذه السورة فيها أنساق وليس نسقا واحدا، ولكن أبرزها ومحورها ذلك الذي يبدو واضحا للقارئ، أعني به الثنائيات المتقابلة التي تمتد من أول السورة إلى آخرها. فمن المقابلة بين المعنويات (الإيمان والكفر، والهدى والضلال، والاطمئنان والحيرة، ...) إلى المقابلة بين المشاهد في الحسيات (السماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، الحسنى وجهنم، والشخوص والظلال، والجبال الراسية والأنهار الجارية، والزبد الذاهب، والماء الباقي، وقطع من الأرض متجاورات مختلفات، والزروع والثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح، ونخيل صنوان وغير صنوان، ....)

ومن ثم ((يتقابل الاستعلاء في الاستواء على العرش، مع تسخير الشمس والقمر، ويتقابل ما تغيض الأرحام مع ما تزداد، ويتقابل من أسرّ القول مع من جهر به، ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق، ويتقابل تسبيح الرعد حمدا مع تسبيح الملائكة خوفا، وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء، ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى، ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه، ويتقابل المحو مع الإثبات في الكتاب. وبالإجمال، تتقابل المعاني وتتقابل الحركات وتتقابل الاتجاهات، لتنسيق الجو العام في الأداء)) [١٩]. بل إن (الرعد) الذي سميت به السورة هو إشارة إلى بعض خلق الله العجيب، وهو يجمع النقيضين، فهو يخيف من جهة الصواعق التي تصيب فتفني، ويُرجى من الماء المرسل معه لإحياء الأرض الميتة.

إن ثراء سورة الرعد بهذه الثنائيات التي تتمحور جميعا حول قدرة الله عز وجل وعظيم خلقة، لا غرابة في تتوج في واسطة عقدها بما يدعو إلى السجود للخالق العظيم، بل هو في غاية المناسبة بين آية السجدة ونسق السورة العام، فضلا عن المضامين والمعاني الجزئية للسورة؛ لتكون المناسبة بين آية السجدة وباقي آيات السورة في إطار نسقها العام نمطا من أنماط المناسبة التي يمتاز بها أسلوب القرآن الكريم، ووجها من وجوه إعجازه.

ولا غرابة كذلك في أن تتضمن هذه الدعوة حقيقة لا تنفك عن عظمة الخلق وعظمة خالقه، وهي امتثال المخلوقات جميعا بالسجود لخالقها: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ الرعد، على وجه تخصيص السجود لله عز وجل والتأكيد عليه، بدلالة تقديم لفظ الجلالة، وعلى وجه التجدد والحدوث، بدلالة الفعل المضارع يَسْجُدُ.

وهنا تزداد المناسبة تجذرا وعمقا؛ إذ إن آية السجدة في ذاتها قائمة كذلك على نسق الثنائيات المتقابلة (السموات/ الأرض، طوعا/ كرها، من في السموات والأرض/ ظلالهم، الغدو والآصال)، وعلى هذا تأتي السجدة في نسقها تناسب النسق العام للسورة، فيمر قارئ السورة على آية السجدة فيجدها تنساب سلسة في جو السورة ومحورها.

وهي قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ النحل

هذا هو الموضع الثالث لسجود التلاوة في القرآن الكريم من حيث ترتيب السور في المصحف، وقد جاء في سورة النحل (بعد سورة الرعد بسورتين)، في الآية التاسعة والأربعين، من بين مائة وثمانية وعشرين آية.

وهذه هي السجدة العاشرة من حيث ترتيب النزول، جاءت بعد سجدة سورة فصّلت وقبل سجدة سورة السجدة.

وسورة النحل مكية، وهي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف، وهي آخر سور المثاني. وهي الثامنة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الشعراء وقبل سورة القصص.

نزلت سورة النحل بعد الإسراء بالنبي وقبيل هجرته عليه الصلاة والسلام[٢٠]. ومعلوم الحال التي كان عليها النبي عليه الصلاة والسلام، لا سيما بعدما كذّبه قومه، وما لاقاه منهم من أذى قبيل أن يأذن الله له بالهجرة، فضلا عن فقده لعمه أبي طالب ولزوجه خديجة عليها السلام، فربما جاءت هذه السجدة لتؤنس النبي صلى الله عليه وسلم بالقرب من الله عز وجل، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، كم أنه تشد من عزمه وعزم صحابته، وتفضح المنافقين ونفاقهم والمشركين واستكبارهم، فتكون هذه السجدة مناسبة للحال التي عليها النبي صلى الله عليه وسلم وقت نزولها.

سميت سورة النحل لما ورد فيها من ذكر للنحل في حين لم يذكر في سورة أخرى، وسماها السلف سورة النِّعم [٢١] لاعتنائها بذكر نعم الله عز وجل والتفصيل فيها[٢٢]، وأن لها السبق في ترتيب هذه النعم وتنظيمها وتنسيقها، فقد ذكرت النعم العامة والخاصة، القديمة والحديثة، الظاهرة والباطنة، العلوية والأرضية، المنفصلة عن الإنسان والمتصلة به، المادية والمعنوية، الجمالية والذوقية[٢٣]. كما أن عشرا من آياتها تضمنت (نعم) ومشتقاتها، مبتدئة بتقرير حقيقة العجز عن إحصاء نعمة الله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ النحل، وقد ذكّرت السورة الناس بأكثر من أربعين نعمة من النعم العظيمة[٢٤].

وربما يضيء اسم السورة هذا الطريق للوصول إلى مناسبة السجدة في هذه السورة. فمحور السورة نعم الله عز وجل، وكل نعمة ذكرتها السورة تتطلب سجودا للمنعم، على عظيم امتنانه بهذه النعمة، وعلى عظيم قدرته على خلقها وتسخيرها وتدبيرها، ولهذا فإن السجدة في هذه السورة مناسبة لاتجاه محورها العام، كما أنها تمنح المؤمن الذي يتلو هذه السورة فرصة التعجيل بشكر هذه النعم، وإظهار غاية

الخضوع والتسليم لعظمة الخالق المقتدر، في حين أنها تفضح المستكبر المعاند، الذي يمر على هذه الآيات وهذه السورة ثم لا يقر بكل هذا.

إن ((سورة النحل من السور العجيبة، من يقرأها يستشعر أمرين بكل وضوح: الأول: عظيم نعمة الله وعظيم جحود الإنسان)) [٢٥]، والسجدة هي الفارقة بين الاتجاهين المتناقضين: اتجاه شكر النعمة المقرّب إلى الله عز وجل، أو او اتجاه الاستكبار عنها المبعد عن رحمته عز وجل.

إن شكر النعمة من أساسيات دوامها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ إبراهيم، وإنْ وفّق الله عز وجل الإنسان لشكر النعمة والسجود له، فهذا بحد ذاته نعمة عظيمة تستوجب إدامة الشكر، ومن علامات إيمان العبد أن يسأل ربه التوفيق لشكرَ نعمه، قال تعالى: ﴿ ...حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ...﴿١٥﴾ ﴾ الأحقاف، وقد ذكرت السورة نبي الله إبراهيم عليه السلام ممدوحا بصفة شكر النعمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ...﴿١٢١﴾ ﴾ النحل

وفعل المؤمنين هذا هو ما تضمنته آيات السجدة في تصريح بامتداح فعل المؤمنين، ولتؤكد ارتباط السجود بشكر النعم: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ النحل. وقد أمروا من قبل بشكر النعم، قال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ النحل.

أما إذا تمتع العبد بالنعمة ولم يؤد شكرها فإن هذا سيكون استدراجا، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الأنبياء ، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ الأنعام.

وهذا الاستكبار ذكرته آيات سورة النحل، قال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ النحل، ومن بعده الاستدراج: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ النحل.

ومن هنا يمكننا أن نفهم مناسبة السجدة لهذه الآيات ولغيرها من التي صرحت أو عرضت بالمشركين، وكذلك لمثال القرية المطمئنة، الذي قدّمته السورة لفقدان النعمة بعد التمتع بها؛ بسبب الاستكبار والتغافل عن شكرها، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ النحل، هذا المثل هو الأخير من ثلاثة أمثلة تضمنتها السورة، شكلت إيجازا قائما على التصوير لما تتجه إليه مضامين السورة، أما الأولان فقد جاءا متتابعين ليناسبا عظيم نعم الله على عباده وتعددها، قال تعالى: ﴿

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ النحل.

ومن ثم فإن مجيء هذه الآيات التي تصور النعم في مثالين، (ليناسب تعدد نعم الله عز وجل وتنوعها)، ثم تذكر حال من لا يشكر نعمه، ويصورهم بحال (قرية) (ليدل على كثرتهم واغترارهم بجموعهم وباجتماعهم وتنعمهم الآني) أعطت بعدا آخر، زاد من فهم مناسبة السجدة في هذه السورة، فالسجود هو الفعل الذي يقر بالامتنان لله عز وجل، ويظهر الشكر له، وهو ينسجم مع سجود الملائكة، وسجود ما في السموات والأرض.

وقد ارتبطت السجدة بمناسبة مع جاء في خواتيم هذه السورة، التي تضمنت ما منّ الله به على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته من تبيان لمنهج الدعوة[٢٦] مما يعدَّ نعمة عظيمة من نعم الله عز وجل التي لا تحصى على نبيه وعلى أمته، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾النحل. فمعية الله تعالى من أجل النعم وأرأفها بعباده المؤمنين والمحسنين، الذين هم لا يستكبرون، ويخافون ربهم من فوقهم، ويفعلون ما يؤمرون باتباعهم هذا المنهج، وكل ما يأمر به ربهم عز وجل. مثل النحل التي أوحى الله إليها، وسخر لها النعم من الجبال والشجر، ثم أمرها وبين لها المنهج (اتخذي/كلي/ اسلكي) فاستجابت، فما زالت أمة ممدوحة من الله عز وجل، مجتمعة، تنتج الشهد وفيه الشفاء: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾النحل.

آية السجدة في سورة الإسراء

وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الإسراء

هذا هو الموضع الرابع من سجود التلاوة في القرآن الكريم من حيث ترتيب السور في المصحف، وقد جاء في سورة الإسراء (وهي بعد سورة النحل مباشرة)، في الآية السابعة بعد المائة، من بين أحد عشر ومائة آية، أي في خواتيم السورة.

والسجدة في هذه الآية هي السجدة الثامنة من حيث ترتيب نزول السجدات، جاءت بعد سجدة سورة النمل وقبل سجدة سورة فصلت.

وسورة الإسراء مكية، ترتيبها في المصحف السابعة عشرة، وهي من المئين، وهي الخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة القصص وقبل سورة يونس [٢٧].

والإسراء بالنبي عليه الصلاة والسلام كان في السنة الثانية عشرة من البعثة، فيكون نزولها في هذه السنة [٢٨].

أي إنها نزلت في وقت توالت عليه المصائب والأحزان، من وفاة عمه وزوجه، والأذى الذي لاقاه من أهل الطائف، وما يزال يلاقيه من قومه، حتى إن ذاك العام بات معروفا بعام الحزن، كما أنها نزلت في وقت ((كثرت فِيهِ جماعةُ المسلمين بِمكة، وأَخذ التشريع المتعلق بمعاملات جماعتهم يتطرق إلى نفوسهم، فقد ذُكرت فيها أَحكامٌ متتاليةٌ لم تذكر أَمثالُ عددهَا في سورة مكية غيرها عدا سورة الأَنعام))[٢٩].

و(الإسراء) هو الاسم الذي عُرفت به هذه السّورة، وعرفت كذلك في وقت الصحابة رضوان الله عليهم بسورة بني إسرائيل[٣٠]، والمتأمل في سورة الإسراء يرى أن الاسمين كليهما تسري إشراقتهما في معاني آيات السورة كلها؛ يظهر هذا من مطلع السورة الذي يتحدث عن معجزة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ الإسراء، وهو مناسب لخاتمة السورة التي تسبقها (سورة النحل) وامتداد لها: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ النحل، فالسورة ((افتتحت بمعجزة الإسراء توطئةً للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى- عليه الصلاة والسلام- على عادة القرآن في ذكر المثل والنظائر الدينية))[٣١]، ومن ههنا عُدل في الآية التي تلتها إلى الحديث عن بني إسرائيل ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ الإسراء، ومن المعروف أن القرآن الكريم ذكر من أخبار بني إسرائيل وأحوالهم في مناسبات عديدة، لكنه في هذا الموضع يذكر موسى نبي بني إسرائيل، وكيف أنزل الله تعالى عليه الكتاب (التوراة)، وجعله هدى لهم. من هنا، وبغية تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما يلاقيه من قومه من تكذيب به وبالقرآن، تتوجه السورة إلى بيان حالين:

الأولى: التوراة وحالها في بني إسرائيل من العاملين بها ومن المفرطين، إذ ذكر القرآن ابتداء أن الله تعالى بيّن لبني إسرائيل في التوراة شيئا مما سيقع لهم من نصر وهزيمة، ليكون فيما يكون دليلا على صدق نبيهم، وصدق التوراة التي ينبغي عليهم أن يرعوها ويعملوا بهديها: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ

كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ الإسراء، والآيات بنبوءاتها تنطوي على تعريض ببني إسرائيل ممن فرط في التوراة، إذ إنهم كلما أعرضوا عن التوراة وأفسدوا فإن الله يكلهم إلى أنفسهم فيكون مصيرهم الخسران؛ لذا تضمنت السورة مثالا من واقع ما جرى لهم مع نبيهم موسى عليه السلام لما بعثه الله تعالى بالبينات إلى فرعون(٣٢)، فما كان من فرعون إلا أن اتهمه بالسحر، وأراد أن يستفز بني إسرائيل من الأرض فهلك، وقبل بنو إسرائيل الهدى فنجوا، ثم انحرفوا وأفسدوا فعادت الكرة عليهم .

الثانية: القرآن وحاله مع المؤمنين به ومع المكذبين، وهذا البيان يبدأ عند الآيات التي تلي الآيات السابقة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ الإسراء ، ولا يقف عندها، إذ يمتد على طول السورة، لتكون الإسراء السورة الأكثر ذكرا للقرآن الكريم من بين سور القرآن حتى إنها لترتبط بالسورة التي بعدها (سورة الكهف)، إذ تبتدئ بذكر القرآن: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ ﴾ الكهف، كما أن ذكر القرآن الكريم في سورة الإسراء جاء على وفق نسق كان من بين وظائفه بيان الحال التي نذكرها هنا، فبعد هذا البدء يتطور نسق البيان ملتزما بذات المحور، فكما قضى الله تعالى إلى بني إسرائيل في التوراة، كذلك قضى في القرآن: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... ﴿٢٤﴾ ﴾ الإسراء ، لكن أقضية القرآن فيها تفصيل كل شيء، ذكرت الآيات: ٢٤ – ٣٩ شيئا منها (الحقوق المتعلقة بالوالدين وبذي القربى والمساكين وابن السبيل، والاقتصاد، والرزق، والقتل، والزنا، والعقوبات، ومعاملة اليتيم، والقسط، والتعلم، والتكبر) وملاك كل هذا التفصيل: الحكمة، وهدفه الأسمى: التوحيد ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ الإسراء .

ولكن مع هذه المنة العظيمة من الله عز وجل لا ترى من بعض البشر إلا الصد والنفور: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ الإسراء، هذا حال من أراد أن يصرف نفسه عن الإيمان بالله وبكتابه؛ لذلك صرفهم الله عن القرآن، وصرف قلوبهم وأسماعهم، وجعل بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المعرضين عن القرآن حجابا مستورا، لا يراه النبي ولا يراه المعرضون: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ الإسراء، ولو أن المعرضين فتحوا أسماعهم لسماع القرآن لأيقنوا بالعذاب الذي ينتظرهم: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾ الإسراء ، وما طغوا وما استكبروا: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ الإسراء، طغيانا أرادوا

من ورائه أن يبدلوا القرآن على أهوائهم: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾الإسراء.

الحال هذه ليست مخصوصة بالنبي عليه الصلاة والسلام، بل هي سنة كونية: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾الإسراء؛ لذلك تأسّ أيها النبي بهذه السنة الكونية، ولا تلتفت إلى ما أحزنك من تكذيب قومك، لا سيما في خبر الإسراء، وانصرف إلى الصلاة التي تلقيت فرضها في المعراج؛ ففيها العلاج، وتمسك بالقرآن وانهل من صفائه وعذوبته: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾الإسراء، فحال القرآن مع المؤمنين شفاء ورحمة، ومع الظالمين زيادة في الخسارة: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾الإسراء، القرآن يتحدى كل الخلق، ومع هذا فالمؤمنون به قليلون؛ فتأسّ يا نبي الله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾الإسراء.

وهنا تأتي مناسبة بيان بعض جوانب إعجازه، فأولا: هو للناس كافة، وفيه من كل مثل: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾الإسراء، وثانيا: هو حقّ، ونزل من عند الله الحقّ بالحقّ: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾الإسراء، وفي هذه الآية إشارة إلى بني إسرائيل وتحريفهم للتوراة، فهي ((وإن تكن قد أنزلها الله سبحانه وتعالى، بالحقّ، كما أنزل القرآن، إلا أنها حين اتصلت بالنّاس، عبثوا بها، وغيّروا معالمها، وأخفوا الحق الذي نزلت به، أما القرآن الكريم فقد أنزله الله سبحانه وتعالى بالحق، وأنه سبحانه تولّى حفظ هذا الحقّ الذي نزل به، فلم تبدّل آياته، ولم تحرّف كلماته)) [٣٣]، كما أن فيها تعريضا بالكفار في أنه ينبغي عليهم أن لا يضيعوا هذا الحق الذي جاءهم كما فعل بنو إسرائيل بكتابهم وتلميحا لما ورد في بداية السورة من تبديل بني إسرائيل للتوراة.

وثالثا: أُحكم وفُصّل[٣٤] من لدن حكيم خبير: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾الإسراء.

ثم بعد أن وصل النسق غايته في التحدي مع التيئيس، جاءت آيات السجدة في مقامها المناسب؛ لتُتَوّجَ هذا النسق بصورة مناسبة لهذا المقام، إذ تنفتح معانيها على آفاق عدة، وتجتمع فيها على طريقة الاحتباك النصي العناصر التي اشتملت عليها الحالين: (التوراة/ العاملون بها والمفرطون من بني إسرائيل، القرآن/ المؤمنون به والمكذبون): ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾الإسراء.

هنا يتوجه أول المعاني إلى المعرضين عن القرآن، لنفي أية أهمية لهم إن آمنوا أو لم يؤمنوا، وهذا ينطوي على التعريض بكفار قريش وبكل الذين أعرضوا عن القرآن واستكبروا، ((إشارة إلى أنهم لا يعلون من قدر القرآن شيئا، إذا هم آمنوا به، ولا ينزلون من قدره شيئا، إذا هم أمسكوا أنفسهم على الكفر، وأبوا أن يعترفوا بأنه كلام الله، وأن الرسول الذي جاء به هو رسول الله))[٣٥]. وينطوي كذلك على تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وحضه على مواصلة دعوته، فعليه التبليغ وما عليه بمن آمن أو لم يؤمن، ((كأنه قيل تسلّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة))[٣٦]

ثم يتجه إلى المؤمنين من بني إسرائيل، من الذين أوتوا العلم، فيشيد بهم، ويصور فطرتهم السليمة، وشدة إيمانهم، ورقة قلوبهم، فبمجرد سماعهم للقرآن يتلى فإنهم يخرون للأذقان سجدا لله، ونص الآيات يتسع لأن يكونوا قد قاموا بفعل (يخرون) مرة واحدة، بحالين مختلفين: ساجدين باكين (على أنه ذُكر مرّتَين اهتمامًا بما صَحِبه من علامات الخشوع)[٣٧]، ويحتمل أنهم قاموا به مرتين: مرة للتعجب والبهجة من تحقق وعد الله[٣٨]؛ لذا رافقه تسبيحهم، والأخرى من سطوة الجلال والرهبة[٣٩]؛ لذا رافقه البكاء والخشوع، كما يحتمل أن منهم من قام به مرة واحدة وآخرون قاموا به مرتين، وعلى أية حال فمن الواضح أن القرآن الكريم احتفى هنا بهؤلاء الذين أوتوا العلم أيما احتفاء، وكرمهم أيما تكريم؛ إذ امتدح فعلهم في القرآن الكريم، ليس هذا فحسب، إنما في موضع آيات سجود التلاوة، وهذه الآية ربما أحالت إلى آيات أخرى في القرآن الكريم تحتفي بالمؤمنين من أهل الكتاب، وفي موضع متميز كذلك، من مثل قوله تعالى في خاتمة سورة آل عمران: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ آل عمران.

ويتجه معنى آخر إلى كل من يتأمل في القرآن، فإنه لا يذكر ((سجود أَهل الكتاب عند سماع القرآن إلا وهو يرى نفسه أَجدر بالسجود عند تلاوة القرآن))[٤٠].

وهكذا نرى أن أغلب أهداف سورة الإسراء التقى في آيات سجود التلاوة هذه، وأنها جاءت في مقامها المناسب، وأنها تستدعي سجود التلاوة فطرةً وبديهةً من كل من ألقى سمعه وقلبه لهذه السورة.

خاتمة:

بعد رحلة طيبة في أسرار مناسبات آيات سجدات التلاوة، يوجز البحث أبرز نتائجه:

فقد أشار البحث إلى أن آيات سجود التلاوة ناسبت الأحداث القائمة وقت نزولها، إذ إن لها مناسبة في ترتيب النزول كما أن لها مناسبة في ترتيب المصحف.

كما بين البحث أن مما يعين على معرفة مناسبة الآيات في السورة هو الوقوف على ما المعنى الجامع الذي تتجه إليه السورة، وذلك لا يكون إلا بعد تدبر السورة كلها.

وبين البحث تنوع الطرائق في سبيل الوصول إلى مناسبات آياتها، فمنها ما يكون بتتبع التسلسل المنطقي لتطور معاني السورة، ومنها ما يكون بتحليل ثنائيات السورة، وهكذا.

وبين كذلك أن آيات سجود التلاوة فيها إشارات نصية تسهم على التعرف على مناسباتها، كما أن اسم السورة وبداياتها لها علاقة في إضاءة مناسبات هذه الآيات.

وفي أثناء ذلك ذكر البحث ما وقف عليه من لطائف لمناسبات آيات سجود التلاوة.

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يتجاوز عن تقصيرنا وزلاتنا، وأن يهدينا إلى الصواب، وأن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى.

الهوامش

* Al-munasabah is a science which has an important role within al-Qur'an tafseer studies, because this study examines the contents of al-Qur'an by finding the correlation of it's verses.

(١) الزركشي(ت٧٩٤هـ)، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن: ١/٣٥.

(٢) الرازي (ت٦٠٦هـ)، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (تفسير الرازي): ١/٣٦.

(٣) الزرقاني(ت١٣٦٧هـ)، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ٥٢.

(٤) السيوطي (ت٩١١هـ)، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن: ٣/٣٧٠.

(٥) البقاعي (ت٨٨٥هـ)، برهان الدين إبراهيم بن عمر، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ١/١٤٩

(٦) رواه البخاري في كتاب: (الجمعة)، باب: (من لم يجد موضعا للسجود مع الإمام من الزحام)، البخاري (ت٢٥٦هـ)، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري): ١/٣٦٥.

(٧) مواضع سجود التلاوة في القرآن الكريم لا يزيد على خمسة عشر موضعا، واتفق أرباب المذاهب الأربعة، وكذا المذهب الظاهري على ثمانية منها، واختلفوا في الباقي. وكتب الفقه زاخرة ببيان مواضع الاختلاف، ينظر على سبيل المثال: اللاحم، د. صالح بن عبد الله، سجود التلاوة وأحكامه: ٧٠، والجزيري (ت١٣٦٠هـ)، عبد الرحمن بن محمد عوض، الفقه على المذاهب الأربعة: ١/ ٤٢٥.

(٨) ينظر: الرازي، تفسير الرازي: ٧/ ١٠٧، وبازمول، محمد بن عمر بن سالم، علم المناسبات في السور والآيات: ١٨.

(٩) ينظر: السيوطي، الإتقان: ٣/ ٣٧٦.

(١٠) البقاعي (ت٨٨٥هـ)، برهان الدين إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١/ ١١.

(١١) ينظر: الصعيدي، عبد المتعال، النظم الفني في القرآن: ٢٥.

(١٢) ينظر: سورة الأعراف، الآيتان: ٤٦ و٤٨.

(١٣) الأعراف: جمع عرف، وهو كل مرتفع من الأرض. وقال السدي: " إنما سمي الأعراف أعرافا، لأن أصحابه يعرفون الناس. ينظر: ابن منظور(ت٧١١هـ)، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب: مادة (عرف)، ٩/٢٤١، والناصري، محمد المكي، التيسير في أحاديث التفسير: ٢/ ٢١٩.

(١٤) الآلوسي(ت١٢٧٠هـ)، شهاب الدين محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الآلوسي): ٥/١٤٤.

(١٥) الرازي، (تفسير الرازي): ١٥/ ٤٥٥.

(١٦) يرى بعض العلماء أن المراد بـ ﴿ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ هو الحال الذي يكون العبد به عند ربه كالملائكة قرباً وزلفى، فهو دنو مكانة لا مكان. ينظر: البقاعي (ت٨٨٥هـ)، نظم الدرر: ٣/١٧٩.

(١٧) ينظر: الصعيدي: ١٥٥.

(١٨) دروزة، محمد عزت، التفسير الحديث: ٥/ ٥١٥.

(١٩) شرف الدين، جعفر، الموسوعة القرآنية خصائص السور،: ٤/١٩٢.

(٢٠) ينظر: الصعيدي: ١٦٧.

(٢١) ينظر: ابن كثير(ت٧٧٤هـ) : ٤/ ٥٠٨.

(٢٢) كما أن النحل ذكر في سياق بيان عظمة خلق الله تبارك وتعالى، وفي سياق بيان نعمه عز وجل.

(٢٣) ينظر: محمد، إدريس حامد، النعم في ضوء سورة النحل: ٣٣ و ٤٩.

(٢٤) ينظر: نوفل، د. أحمد، النعم في سورة النحل، من موقع tafsir.net، تاريخ النشر: ٢٥ ذو الحجة ١٤٣٥.

(٢٥) المبيض، د. محمد، من أسرار سورة النحل، http://felesteen.ps/article/mn-asrar-swrt-alnhl.

(٢٦) هذا المنهج المبين في هذه الآية يشبه ما مرّ معنا في سورة الأعراف من قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ الأعراف، الآية التي بينت منهج الدعوة، التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغها في أول سورة الأعراف، وقد بين البحث المناسبة مع سجدة السورة.

(٢٧) ينظر: الصعيدي: ٢٥.

(٢٨) ينظر: الصعيدي: ١٧٦.

(٢٩) تفسير ابن عاشور: ٦/١٥.

(٣٠) في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أَنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهنَّ من العتاقِ الأُول وهُنَّ من تلادي. ينظر: البخاري (ت٢٥٦هـ)، كتاب: (التفسير)، باب: (سورة بني إسرائيل): ٤/ ١٧٤١.

(٣١) ابن عاشور: ٧/١٥.

(٣٢) الآيات ١٠١ ـ ١٠٤ من سورة الإسراء.

(٣٣) الخطيب (ت بعد ١٣٩٠هـ)، عبد الكريم يونس، التفسير القرآني للقرآن: ٨/ ٥٦٥.

(٣٤) ينظر: الفراء (ت٢٠٧هـ)، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن: ١٣٣/٢.

(٣٥) الخطيب (ت بعد ١٣٩٠هـ): ٨/ ٥٦٩.

(٣٦) الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، جار الله محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (تفسير الزمخشري): ٦٥٤/٢.

(٣٧) ينظر: ابن كثير: ١١٧/٥، وابن عاشور: ١٥/ ٢٣٥

(٣٨) ينظر: ابن عاشور: ١٥/ ٢٣٤.

(٣٩) ينظر: الخطيب (ت بعد ١٣٩٠هـ): ٥٧٢/٨.

(٤٠) تفسير ابن عاشور: ١٥/ ٢٣٥.

Qayimat almasadir

1. abn kthyr (t 774 h) , 'abu alfada' 'iismaeil bin eumar , tafsir alquran aleazim (tfsyr abn kthyr) , tahqiq: muhamad husayn shams aldiyn , dar alkutub aleilmiat , bayrut , t 1 , 1419 h
2. abn manzur (t 711 h) , 'abu alfadl jamal aldiyn muhamad bin mukrim , lisan alearab , dar sadir , bayrut , t 3 , 1414 h.
3. alalusi (t 1270 h) , shihab aldiyn mahmud bin eabd allh , ruh almaeani fi tafsir alquran aleazim walsabe almathanii (tfsir alalwsy) , thqyq: eali eabd albari eatiat , dar alkutub aleilmiat , bayrut , t 1 , 1415 h.
4. bazmul , muhamad bin eumar bin salim , eilm almunasabat fi alsuwr walayat , almaktabat almukiat , makat almukaramat , t 1 , 2002.
5. albukhari (t 256 h) , 'abu eabd allah muhamad bin 'iismaeil , aljamie alsahih almukhtasir (shyh albkhary) , tahqiq: d. mustafaa dib albagha , dar abn kthyr , alyamamat - bayrut , t 3 , 1987.
6. albqaey (t 885 h) , 'iibrahim bin eumar , nazam aldarar fi tanasab alayat walsuwr , thqyq: eabd alrazzaq ghalib almahdi , dar alkutub aleilmiat , bayrut , d. t , 1995 m.
7. albqaey (t 885 h) , 'abu alhasan burhan aldiyn 'iibrahim bin eumar , masaeid alnazar lil'iishraf ealaa maqasid alsuwr , maktabat almaearif , alriyad , t 1 , 1987 m.
8. altuwayujuziu , jaefar sharaf aldiyn , almawsueat alquraniat khasayis alsuwr , almhqq: eabd aleaziz bin euthman , dar altaqrib bayn almadhahib al'iislamiat , bayrut , t 1 , 1420 h.
9. aljaziriu (at 1360 h) , eabd alruhmin bin muhamad eiwad , alfaquh ealaa almadhahib alarbet , dar alkutub aleilmiat , bayrut , t 2 , 2003 m.
10. alkhatib (t baed 1390 h) , eabd alkarim yunis , altafsir alquraniu lilquran , dar alfikr alearabii , alqahrt , d. t , d. t.
11. daruzat , muhamad eizat , altafsir alhadith , dar 'iihya' alkutub alearabiat , alqahrt , da.t 1383 h.
12. alrrazi (t 606 h) , 'abu eabd allah fakhara aldiyn muhamad bin eumar , mafatih alghayb (tfsyr alrrazy) , dar 'iihya' alturath alearabii , bayrut , t 3 , 1420 h.
13. alzarqani (t 1367 h) , muhamad eabd aleazim , manahij aleurafan fi eulum alquran , thqyq: fawaz 'ahmad zamarli , dar alkitab alearabiu , bayrut , t 1 , 1995 m.
14. alzarkashi (t 794 h) , 'abu eabd allah badr aldiyn muhamad bin bihadir , alburhan fi eulum alquran , tahqiq: muhamad 'abu alfadl 'iibrahim , dar almaerifat , bayrut , d. t , 1391 h.

15. alzamakhashari (t 538 h) , 'abu alqasim jar allah mahmud bin eumar , alkishaf ean alhaqayiq waeuyun al'aqawil fi wujuh altaawil , thqyq: eabd alrazzaq almahdi , dar 'iihya' alturath alearabii , bayrut , da.t , da.t.
16. alsayuti (t 911 h) , jalal aldiyn eabd alrahmin bin 'abi bikr , al'iitqan fi eulum alquran , , tahqiq: muhamad 'abu alfadl 'iibrahim , alhayyat almisriat aleamat lilkutab , alqahrt , d.t , 1974 m.
17. alsaeidi , eabd almutaeal alnazam alfaniyat fi alquran , maktabat aladab , alqahrt , da.t , da.t.
18.)t 207 h) , 'abu zakariaaan yahyaa bin ziad , maeani alquran , , tahqiq: 'ahmad yusif alnujati wakharun , dar almisriat liltaalif waltarjimat , alqahrt , t 1 , da.t.
19. alllahim , d. salih bin eabd allh , sujud altilawat wa'ahkamuh , dar abn aljuzii lilnashr waltawzie , alriyad , t 1 , 1429 h.
20. almabyd , du. muhamad , min 'asrar surat alnahl http://felesteen.ps/article/mn-asrar-swrt-alnhl
21. muhamad , 'iidris hamid , alnaeam fi daw' surat alnahl , risalat majstir , jamieat almalik sueud , 1416 h.
22. alnnasiriu (t 1414 h) , muhamad almki , altaysir fi 'ahadith altafsir , dar algharb al'iislamii , bayrut , t 1 , 1985.
23. nuafil , da. 'ahmad , alnaeam fi surat alnahl , min mawqie tafsir.net , tarikh alnashr: 25 dhu alhujat 1435.